أسرار العربية

مدخل إلى تحديد المصطلح و ضبط المفهوم(1)

يتحدد العلم و يتعرف بثلاث مسائل:موضوعه، و منهجه، و مصطلحاته. و تعد المصطلحات مفاتيح العلم إذ تمنح له هويته في ربط الموضوع بمادته من حيث المباحث و الموضوعات، و لا يتعين المصطلح في تخصيص العلم إلا بمفاهيمه، فالعبرة بدلالة المصطلح على ما يدل عليه في ذلك العلم، فقد توجد مصطلحات مشتركة بين عديد من المعارف و لكن دلالتها على تلك المعرفة مختلفة باختلاف مجالها و حقلها المفهومي.

و لا يمكن معرفة الموضوع إلا بالوقوف على مصطلحه بداية، و يجب الاعتراف قبل تحرير الحديث في المفهوم عن مقدمات منهجية تضبط طبيعة المصطلح و مفهومه و دلالته، فهناك مصطلحات دالة دلالة اتفاق على العلم، كدلالة علم النحو على ما هو معهود به، و لك من الأمثلة الكثير، علم الصرف، البلاغة،العروض، اللسانيات.....و هناك مصطلحات هي أقرب إلى الفكر و منهج التفكير منها إلى دلالتها على علم مضبوط.بموضوع و مقصد و طريقة بحث، و منها أسرار العربية .

إذ لا نجد هذا المصطلح يدل على موضوع محدد سلفا، و لا على علم متفق على مباحثه و مقاصده، بل هو محاولة لجمع الخصائص اللغوية للسان العربي مما يعتقد بأنها مواطن التميز و التفرد فيه، دون تأسيس رؤية منهجية ضابطة للمصطلح و مفاهيمه، بمعنى انعدام جهاز مفاهيمي لما يسمى بأسرار العربية بشكل دقيق.

و الأمر الأخر هو وجوب الاعتراف بأن: أسرار العربية مصطلح تراثي و إن استعمل عند بعض الدارسين المحدثين.

فاستعمالهم مختلف لاسيما إذا أريد به الجنوح موضوعا و غاية عن حضوره التراثي. فالعبرة ليست بالعنوان بل بالموضوع خاصة و أن الكثير من تلك الدراسات تبنت النظر اللساني الغربي إذ من المقرر انتفاء تلك الصفة من اللغة، فاللغة تحكمها قوانين و أنظمة على مستوى الصوت و الصرف و النحو و الدلالة، و لا أسرار فيها إذ الخفي المتحكم في البنية جلي بالمنهج و البحث. خاصة و أن الموضوعية أضحت من متطلبات البحث اللساني ، و الأسرار منعكسة عن نظر وجداني مبني على المفاضلة قبل أن يكون منهجا دراسيا كاشفا لبنية منغلقة أو منفتحة.

و نعود إلى التراث العربي و اللافت فيه انتفاء القول بعلم مخصص دلالة بأسرار العربية، و إنما الواقع مجموعة من المؤلفات تحمل العنوان ذاته (أسرار العربية) دون تحديد للموضوع فنجد الثعالبي قد كتب فقه اللغة و سر العربية و موضوعه في عمومه ما يجمع اللفظ العربي بصنوه باتفاق الدلالة عامة و هو بذلك أقرب ما يكون إلى معجمات الموضوعات و كتب عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة ليبين قيمة البيان

العربي و قدرته على الإبلاغ شكلا و مضمونا. و لابن الأنباري كتاب عنوانه أسرار العربية و هو كتاب في النحوي عمومه معرفة الأحكام و عللها. و كتب ابن كمال باشا أسرار النحو مكتفيا باستقراء بعض القواعد و الأحكام.

و لما كانت الأسرار في دلالتها المعجمية قريبة مما خفي من الأمر قولا و فعلا و يحتاج إلى نظر في الكشف عنه فهناك من استعمل الخصائص كابن جني. و لكن الشائع هو انتشار المصطلح العربي في كتب النحو دون تحديد دلالته و هذا ما نجده عند النحاة المتقدمين و المتأخرين.

و الأشهر من ذلك شيوع هذا المصطلح في كتب إعجاز القرآن الكريم، فنحن أمام مجالات معرفية متعددة استعمل فيها ذلك المركب الإضافي و هي:

1. مجال اللغة عامة: و هذا ما هو معهود في الكتب التي جمعت خصائص العربية كالمزهر للسيوطي و هي الموضوعات التي استقرت حديثا بجامع واحد هو فقه اللغة.
2. مجال المعجمات: و خاصة تلك التي تتحدث لثروة اللفظية للعربية و ما فيها من ثراء دلالي.
3. كتب البلاغة العربية و الإعجاز القرآني.
4. المؤلفات النحوية.

إلى حد الآن لم يتم تحديد ماذا نعني بأسرار العربية و هذا لن يكون إلا بدراسة المصطلح و استقرائه ضمن المجالات التي ذكرت آنفا. و هذا موضوع تتمة الحديث في هذا المدخل لاحقا.